مركز الخليج للأبحاث
المعرفة للجميع

ترامب ونهاية الهيمنة: كيف عجّلت نرجسيته بالتعددية القطبية

أ.د صالح بن محمد الخثلان

مستشار أول

مركز الخليج للأبحاث

منذ مطلع تسعينيات القرن الماضي، وتحديدًا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، انصب اهتمام الباحثين في العلاقات الدولية على فهم التحولات التي أصابت بنية النظام العالمي. في البداية، كان الحديث يدور حول انتقال العالم من نظام ثنائي القطبية، كما كان الحال إبان الحرب الباردة، إلى نظام أحادي القطبية تتزعمه الولايات المتحدة. لكن هذه الأحادية لم تدم طويلًا؛ إذ سرعان ما بدأت التوقعات تتجه نحو نشوء نظام متعدد الأقطاب، مدفوعاً بتبدل موازين القوى الاقتصادية والعسكرية والسياسية على الصعيد العالمي.

> **لشخصية الرئيس الأميركي دونالد ترامب، وسلوكه الخارج عن المألوف، دور حاسم في زعزعة الأسس التي قامت عليها زعامة الولايات المتحدة للنظام العالمي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية**

كان الصعود الصيني السريع منذ أواخر القرن العشرين أحد أبرز المؤشرات على تغير طبيعة النظام الدولي. فقد قفز الناتج المحلي الإجمالي للصين من نحو ٣٦٠ مليار دولار في عام ١٩٩٠ إلى ما يقرب من ١٨ تريليون دولار في عام ٢٠٢٣، أي ما يشكّل حوالي ١٨٪ من الاقتصاد العالمي، وسط توقعات بأن تتجاوز الصين الاقتصاد الأميركي في المستقبل القريب. وفي موازاة هذا التحول، برزت الهند كذلك كقوة اقتصادية صاعدة، إذ ارتفع ناتجها المحلي من أقل من ٣٠٠ مليار دولار في أوائل التسعينيات إلى أكثر من ٤٫٢ تريليون دولار في عام ٢٠٢٤، لتصبح خامس أكبر اقتصاد في العالم، مع طموحات واضحة لتخطي اليابان وألمانيا خلال سنوات قليلة. أما روسيا، فعلى الرغم من العقوبات الغربية المتزايدة والأزمات الاقتصادية المتلاحقة، فقد حافظت على دورها كقوة سياسية وعسكرية فاعلة، مستخدمة أدواتها الصلبة في أوكرانيا وسوريا وأفريقيا لتؤكد أنها لا تزال لاعباً لا يمكن تجاوزه. وإلى جانب هذه القوى الكبرى، تقدّمت دول أخرى من ما يُعرف بـ«الجنوب العالمي» مثل البرازيل التي بلغ حجم اقتصادها نحو تريليوني دولار، بالإضافة إلى جنوب أفريقيا وتركيا وإندونيسيا، وهي جميعًا مؤشرات على تآكل هيمنة الغرب وتراجع انفراده بقيادة النظام الدولي لصالح واقع أكثر تعددية وتوازناً.

ما تشير إليه هذه الأرقام والاتجاهات البنيوية لم يعد محل خلاف في أوساط الباحثين، بل أصبح من المسلّمات في فهم طبيعة التحولات الجارية على المستوى الدولي. فهي تعكس تغيرات ملموسة في موازين القوة الاقتصادية والعسكرية، وكذلك في الوزن الديمغرافي والجغرافي للدول. وبينما تنسجم هذه التغيرات مع ما يعرف في أدبيات العلاقات الدولية بـ«نظرية التحول البنيوي»، التي تفترض أن النظام الدولي يبدأ في التغير حين تقترب قوة صاعدة من تجاوز القوة المهيمنة، فإن هذه النظرية **وحدها لا تكفي** لتفسير السرعة اللافتة التي يتجه بها العالم نحو نظام متعدد الأقطاب في السنوات الأخيرة.

ليس العامل الاقتصادي وتداعياته وحده هو من يعيد تشكيل ملامح النظام الدولي؛ بل إن لشخصية الرئيس الأميركي دونالد ترامب، وسلوكه الخارج عن المألوف، دور حاسم في زعزعة الأسس التي قامت عليها زعامة الولايات المتحدة للنظام العالمي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. نحن هنا أمام حالة نادرة في السياسة الدولية، حيث لا يكون التغيير نابعاً فقط من تحولات بنيوية، بل من تأثير مباشر لشخصية قائد سياسي ترك بصمته على النظام العالمي بما يتجاوز البنية ذاتها.

دونالد ترامب ليس رئيساً تقليدياً يمكن فهم سياساته ضمن الأطر المؤسسية التي اعتادتها الولايات المتحدة، بل شكّل ظاهرة استثنائية طبعت السياسة الخارجية الأميركية بطابع شخصي صارخ ونزعة نرجسية واضحة، جعلت من الصعب تفسير قراراته الخارجية وكيفية تقديمها واللغة التي يستخدمها للإعلان عنها من خلال وسائل التواصل، من خلال نظريات السياسة الخارجية المعروفة. فقد اعتاد أن يصف نفسه بـ«أفضل رئيس في تاريخ الولايات المتحدة»، وادّعى أنه قادر على «إنهاء الحروب خلال أربع وعشرين ساعة»، وأكّد مراراً أنه لا يوجد قائد يشبهه في التاريخ المعاصر. هذه اللغة، النادرة في السياقات الديمقراطية، تعكس نمطاً من الزعامة الفردية التي تتجاوز الدولة وهياكلها، وتؤسس لنموذج من القيادة لا يستند إلى مؤسسات، بل إلى شخصية القائد وحده.

من منظور علم النفس السياسي، يتوافق سلوك ترامب بشكل لافت مع ما يُعرف في الأدبيات بـ«الشخصية النرجسية»، وهي سمة تؤثر بعمق على السلوك، وطريقة التعامل مع الاخرين(أفراد ومنظمات ودول)، ومع القضايا. وفي هذا السياق، يلفت **دان ماكآدامز** – أحد أبرز المتخصصين الأميركيين في تحليل الشخصيات والسير النفسية – الانتباه إلى الطابع الفريد لشخصية ترامب. ففي كتابه The strange case of Donald J. Trump: A psychological reckoning (٢٠٢٠) الذي جاء في أحد عشر فصلاً وتجاوز ٣٠٠ صفحة، قدّم ماكآدامز تحليلاً دقيقاً خلص فيه إلى أن ترامب يُعد «**من أكثر الأشخاص تعطشاً للظهور وجذب الأنظار ممن مشوا على وجه الأرض**». هذا الوصف، بما يحمله من دلالة، يرسم صورة زعيم يتحرك بخفة مستفزة، كما لو أن العالم لا يتسع له. إنها نرجسية متضخمة تتجسّد في حضور طاغٍ وثقة مفرطة، تدفع صاحبها إلى اتخاذ قرارات كبرى خارج الأطر المؤسسية والمسارات التقليدية لصناعة القرار، وهي السمات التي ميّزت سلوك ترامب داخلياً وخارجياً.

اللافت أن ترامب، وعلى خلاف تقليد راسخ في السياسة الخارجية الأميركية امتدّ منذ مبدأ مونرو في القرن التاسع عشر، لم يتبنَّ عقيدة خارجية واضحة أو منهجية تُفسّر قراراته، كما فعل أسلافه من الرؤساء مثل نيكسون وريغان وكلينتون وبوش وأوباما؛ فلا توجد استراتيجية متماسكة في السياسة الخارجية، ولم تُصدر إدارته أي وثيقة مرجعية تحدد الأهداف والأولويات، كما جرت العادة في الإدارات الأميركية السابقة. هذا الفراغ، المعروف في الأدبيات السياسية الأمريكية بغياب «العقيدة الرئاسية»، حوّل مواقف ترامب الخارجية إلى سلسلة من ردود الأفعال الشخصية والانفعالات المفاجئة، ما أربك الحلفاء، وأثار شكوك الخصوم، وأسهم في تآكل مكانة الولايات المتحدة ضمن النظام الدولي.

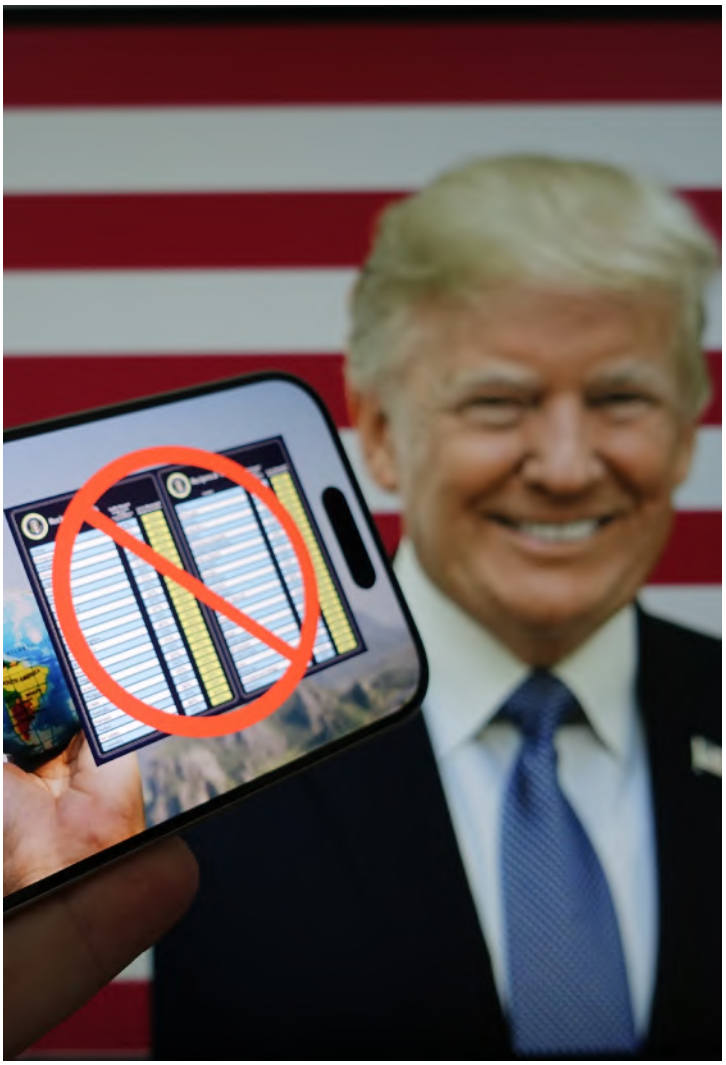

أما على المستوى الداخلي، يحكم ترامب بأسلوب أقرب إلى أنظمة «الرجل الواحد»، حيث لم تكن الكفاءة هي المعيار الأساسي في تعيين كبار المسؤولين، بل الولاء الشخصي المطلق له، وبذلك، اختزل الدولة في ذاته، ومارس سلطته ونزعته النرجسية في ظل غياب فعلي لأي مقاومة مؤسسية جدّية. هذا النمط من الحكم غير مألوف في السياق الديمقراطي الأميركي الحديث، ويشكّل سابقة في تقويض التقاليد المؤسسية التي طالما ميّزت النظام السياسي في الولايات المتحدة.

وعلى الصعيد الدولي، اتّخذ ترامب سلسلة من القرارات التي شكّلت قطيعة مع السياسات التقليدية لواشنطن، حيث انسحب من اتفاق باريس للمناخ، ومن منظمة الصحة العالمية، وفرض رسوماً جمركية باهظة على الصين وغالبية دول العالم، ولوّح مراراً بالانسحاب من حلف شمال الأطلسي (الناتو)، كما تجاهل اتفاقيات دولية كبرى رعَتها إدارات أميركية سابقة، من أبرزها الاتفاق النووي مع إيران. وفي ولايته الحالية، واصل هذا النهج من خلال تقليص دعم عدد من برامج وكالة التنمية الأميركية، فضلاً عن تصعيد الضغوط على حلفاء واشنطن في الناتو بأسلوب تفاوضي يقترب من الابتزاز السياسي، إضافة إلى تعليق المساهمات الأميركية في مؤسسات دولية متعددة الأطراف. هذه القرارات لم تكن نابعة من رؤية استراتيجية طويلة المدى، بل عكست سلوكاً لحظياً وانفعالياً، تنسجم ملامحه مع شخصية تتعامل مع السياسة الدولية بمنطق الصفقة والربح الفوري، لا بمنطق بناء التحالفات أو صيانة المصلحة الاستراتيجية على المدى البعيد.

تزامنت سياسات ترامب مع تراجع ملحوظ في صورة الولايات المتحدة كقوة أخلاقية ومرجعية قيمية في العالم. فقد أدى **تصاعد الخطاب الليبرالي المتطرف داخلياً، لا سيما الانشغال المبالغ فيه بقضايا الهوية الجنسية**، إلى نفور واسع في العديد من المجتمعات التي رأت في هذه التوجهات تناقضاً صارخاً مع منظوماتها القيمية. ومع تلاشي الخطاب الأميركي الديموقراطي التقليدي الذي عزز قوتها الناعمة، وظهور خطاب أكثر خشونة وابتزازاً، أصبحت الكثير من الدول أكثر جرأة في إعادة النظر بعلاقاتها مع واشنطن، والبحث عن بدائل استراتيجية تحترم خيارتها وتراعي مصالحها.

تجلّت ملامح هذا التحول في النظام الدولي بوضوح خلال قمة شنغهاي الأخيرة، التي جمعت زعماء الصين وروسيا والهند وبقية أعضاء منظمة شنغهاي للتعاون، إضافة إلى زعيم كوريا الشمالية في استعراض رمزي لقوى كبرى قادرة على تشكيل تكتل دولي منافس. لم يكن من الممكن أن يتشكّل هذا النوع من الاصطفاف بهذه السرعة لولا السلوك الخارجي للولايات المتحدة في عهد ترامب، الذي ساهم بشكل مباشر في تقويض الثقة الأميركية حتى لدى أقرب الحلفاء، وفتح الباب أمام بدائل استراتيجية بعيداً عن الهيمنة الأمريكية.

في المحصلة، **لا شك أن التحولات البنيوية، سواء في الاقتصاد أو موازين القوة الجيوسياسية، لعبت دوراً مهماً في إعادة تشكيل النظام العالمي. لكنّ ما حوّل تلك التحولات من احتمالات نظرية إلى واقع سياسي ملموس كان دونالد ترامب نفسه، بشخصيته النرجسية وخياراته الخارجة عن المألوف؛ فقد أزاح الولايات المتحدة عن موقع القيادة التقليدي**، ووفّر لخصومها، بل ولعدد من حلفائها، مبررات عملية لإعادة تموضعهم بعيداً عنها، سواء بالمواجهة أو بالتفلت من التحالف.

خلاصة القول أن العالم اليوم يشهد تسارعاً غير مسبوق نحو نظام دولي متعدد الأقطاب، وهذا التغيير لا يعود فقط إلى تبدل موازين القوى، بل، وربما بدرجة أكبر إلى **ظهور شخصية استثنائية في لحظة مفصلية**، ولو لم يكن ترامب في البيت الأبيض، لربما بقي النظام الدولي عالقًا في مرحلة انتقالية غامضة، بدلاً من الاتجاه الحاسم والواضح الذي نراه اليوم.

أخيراً، حتى الآن، لم تنقضِ سوى سنة واحدة من ولاية ترامب الحالية، ومن خلال ما ظهر حتى اللحظة، يمكن القول إن النظام الدولي، وبسبب ترامب، **مقبل على تحولات قد تكون أشد وقعاً مما مضى**.

Gulf Research Center
Knowledge for All

مركز الخليج للأبحاث
المعرفة للجميع

Gulf Research Center
Jeddah
(Main office)

19 Rayat Alitihad Street
P.O. Box 2134
Jeddah 21451
Saudi Arabia
Tel: +966 12 6511999
Fax: +966 12 6531375
Email: info@grc.net

Gulf Research Center
Riyadh

Unit FN11A
King Faisal Foundation
North Tower
King Fahd Branch Rd
Al Olaya Riyadh 12212
Saudi Arabia
Tel: +966 112112567
Email: info@grc.net

Gulf Research Center
Foundation

Avenue de France 23
1202 Geneva
Switzerland
Tel: +41227162730
Email: info@grc.net

Gulf Research Centre
Cambridge

University of Cambridge
Sidgwick Avenue,
Cambridge CB3 9DA
United Kingdom
Tel:+44-1223-760758
Fax:+44-1223-335110

Gulf Research Center
Foundation Brussels

4th Floor
Avenue de
Cortenbergh 89
1000 Brussels
Belgium
grcb@grc.net
+32 2 251 41 64